

التعليم الأصيل بالبادية المغربية وعلاقته بجامعة ابن يوسف

الدكتور الحسن شوقي.

• ارتسامات حول جامعة ابن يوسف

نريد هنا تسليط الأضواء الكاشفة على طرق التعليم وأساليبه بالبادية المغربية وخاصة الثقافة المكتوبة التي كانت تلقن بمساجد الدواوير، وبالكتابيب المنبثة هنا وهناك، لعامة الأولاد صغارا وكبارا، ثم تستمر في المدارس المجاورة أو البعيدة والمتواجدة بالمدن العلمية الكبرى كفاس ومراكش ثم زوايا الجنوب كسوس ودرعة..

وسينصب اهتمامنا على الحديث عن مراحل التعليم وأماكنه، ثم ظروف تلقي العلم وإلقائه، وإقامة الطلبة والأساتذة وظروف عيشهم في مجتمع قرى كالسراغنة وزمران المجاورتين لمراكش وجامعتها اليوسفية العتيقة، كما سنتطرق إلى التعريف ببعض المدارس العلمية العتيقة هنالك والتي ظلت منار للعلم عبر الأجيال ورافدا مهما ومغذيا لابن يوسف، الجامعة الشاحخة بمجدها والتي تتجند الأقلام اليوم للكتابة عنها وعن عطاءاتها الزاخرة سواء ذلك من خريجها، أو ممن تخرجوا ودرسوا على من تخرج منها، أو تحمسوا لها لسماعهم عنها واحتكاكهم بمن درس بها فتشوقوا إليها، وإن لم يدركوا دراسة بها لعامل من العوامل العارضة، فيتأسفوا مثلي إذ فاتتهم فرصة الدراسة بها، وها أنا اليوم أسلي النفس بالكتابة عنها إظهارا لمقامها وإبرازا لشأنها عليها تنبعث من جديد فتربط الماضي بالحاضر، كما فعلت عبر العصور والدهور والأجيال والأحقاب.

من المعلوم أن للمساجد والجوامع في الإسلام دور كبير في الإشعاع الثقافي والعلمي ونشرهما بين الناس، وهذا هو الشأن بالمغرب، والذي منذ الفتح الإسلامي وتكوين الدول المغربية الكبرى، ظل المسجد فيه مركز اهتمام الحكام والمسؤولين وملأه الخاص والعام للدراسة واللقاء والتناظر في الشؤون العامة والخاصة، ودأب الملوك والسلاطين والأمراء منذ العهد الإدريسي وإلى يومنا على إحاطة بيوت الله والقائمين عليها من مؤدبين وأساتذة وقراء وطلبة ومؤذنين بالعناية الفائقة، وذلك بالبرور وتخصيص الرواتب والمنح والهبات، وكذا فعل العامة والخاصة من سكان المدن والبادي، وذلك سواء بتخصيص أماكن السكن للطلبة والرواتب للقيمين الدينيين والقائمين على المساجد بالعناية، ثم الترميم والزيادة والتوسعة كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ولا حاجة للتأكيد على أن المسجد كان من المرافق الأولى التي تؤسس بالمدن وقرب دار الإمارة غالباً، وذلك ليذكر فيه اسم الله وللعبادة والتفقه في الدين عبادة ومعاملة، وأيضاً للصلاة ثم إلقاء دروس الوعظ والإرشاد الديني والأخلاقي، ذلك كان الشأن بالنسبة لجامع القرويين بفاس، منذ أن أسسته فاطمة الفهرية عام 245هـ - 859 م وكذا مسجد ابن يوسف جامعاً وجامعة، والذي أسسه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين في العصر المرابطي، وذلك عام 514 هـ / 1120م، فعزز هذان المسجدان بعضهما علماً وعملاً وأدباً ودراسة، وشكلاً أهم منارتين علميتين في الغرب الإسلامي، إلى جانب جوامع مدن الأندلس وإفريقية (تونس) وتلمسان، وإذا كانت القرويين قد اختصت أكثر في استقبال أبناء المغرب الراغبين في تعميق ومواصلة دراستهم العلمية، فإن الجامعة اليوسفية كانت تستقبل طلبة بوادي الجنوب الواسع وحتى الصحراء، فخرجت آلاف العلماء وعشرات الآلاف منهم المفتون والمدرسون، والقضاة والعدول الذين أشعوا علماً وأدباً في كل مكان.

لقد أطبقت الجامعة اليوسفية بشهرتها الآفاق، وملأت المجالس العلمية حديثاً عنها خاصة من طرف الطلبة، وعائلات الفقهاء، والأدباء، وحتى عامة الناس والذين كان لكثير منهم أبناء يدرسون بها مختلف التخصصات قبل إحداث النظام بها عام 1938م وبعده وذلك في الفقه والنحو واللغة والتاريخ وحتى العلوم البحتة، وكان يحضر بها حلقات العلم حتى العامة حسب ميولاتهم العلمية، ولزيادة الفائدة وتفتيح الأذهان، وكان الطلاب غالباً ممن حفظوا القرآن الكريم في مساجد سوس ودرعة، ومن تافلات، وقبائل السراغنة، وزمران، ثم دكالة والرحامنة، والشاوية وعبدية، ثم احمر وقبائل الجبال البربرية: مسفيوة، وفطواكة وغجدامة... فترى الآفاقيين من هؤلاء، وحتى عهد قريب يقصدونها متحملين الغربة وقلة الزاد، كل ذلك وراء النهل من ابن يوسف ومعارفها، وعلومها عقلية ونقلية، حيث منهم من تظهر نجابته باكراً، ومنهم من يطول مكثه سنوات، حتى إذا أكملوا دراستهم رجعوا إلى قراهم وغدوا مختلف مدن المغرب وبواديهم، فأصبح منهم الإمام والمدير والفقير والمرشد، والمعلم والأستاذ، والموقت والحيسوبي، ومنهم من اقتصر على فلاحته وكسبه، لكن شكل مصدر مشورة علمية للعامة في نوازهم وملابسات حياتهم اليومية، وغذى بعضهم الجامعة نفسها بأطر فذة ذكرت على الألسن ونادراً ما جادت بها الأيام، وساهم هؤلاء عموماً في نشر الوثام الاجتماعي وتقريب الهفوات، وجلبوا بذلك ثناء الخاص والعام، وظلت تلك مهمة الجامعة اليوسفية تخرج الأفواج تلو الأخرى ويضرب بها المثل تفاخراً في علو الكعب في العلم، فكانت طموح كل طامح في جلب حسن الذكر، وهكذا فجل من حفظ القرآن الكريم برواية ورش في مساجد البوادي ومدارسها الكثيرة، كانت لا تخلوا رغبته من الالتحاق بتلك المنارة العلمية للأخذ عن علمائها والاحتكاك بطلبتها، ولأن يكون الطالب يوسفياً في شبابه كان ذلك يشكل له مفخرة ومصدر اعتزاز وشموخ وكذلك للعائلة ورئيسها الأب، لقد

كان سائر الناس يلاحظون بالتقدير والتبجيل الطالب اليوسفي، الذي يكون مهاب الجانب في وسطه وبين أهله وذويه، ولم تكن تلك المترلة ليصلها لولا ملء وطابه علما من ابن يوسف، الجامعة والكلية والجامع المسجد الذي قاوم السنين والقرون، وما فتى ينشر المعرفة ويحفظ كتاب الله ويهذب ويشيع الفضيلة ويمحو الجهل، وبدءاً من العهد المرابطي ومرورا بفترات حكم دول الموحدين ثم المرينيين فالوطاسيين والسعديين وإلى الدولة العلوية الشريفة، والتي ما من ملوكها الأماجد إلا عالم ومعتن بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، مما هو مكتوب بمداد الفخر في سجلات تاريخ المغرب، وما اهتمامنا بعلاقة الجامعة اليوسفية ببواديها القريبة والبعيدة، في إطار إشعاعها العلمي، إلا من باب الرغبة في تسليط الأضواء على تعلق طلبة القبائل بهذه المعلمة العلمية التي أشعت أيام مجدها حتى الأندلس وعمق إفريقيا وقصدها الطلبة آفاقيون وبلديون، وأقاموا الليالي والأيام في دور خاصة كابن صالح وأزبظ وإسبتيين، وكونوا الرفقاء والأصحاب وتركوا الذكريات بهاته الجامعة العتيقة التي يتوق خريجوها بالخصوص وعموم الناس إلى إحياء دورها النبيل والتاريخي كيوم كانت مقصد كل طالب وحديث كل لسان.

• مراحل التعليم وأماكنه الأولى بالسراغنة وزمران نموذجا للبادية المغربية.

بسبب أهمية الشعائر في حياة الناس هناك، فقد مزجوا بين أماكن العبادة وأماكن التعليم، والتي ظلت في منظورهم هي الكتاب⁽¹⁾ الذي أولجوه أبناءهم إياه صغارا وكبارا وهو مسجد يقيم به الإمام الراتب وتؤدي به الصلوات الخمس، وأيضا تجتمع به الجماعة للتناظر في شؤونها، وتستقبل به الوافدين، كما يبيت حوله الغرباء والطارؤون، وتغسل فيه الجنازير ويصلى عليها.. ولم يكن يخل منه دوار أو

(1) عبد الدائم (عبد الله) "التربية عبر التاريخ" بيروت 1975 ص 146.

قرية، فتقوم بتعميره وصيانته ورعايته، فيسمى عندهم بيت الله أو سيدنا جبرائيل لقداسته في حياتهم.

إن الأطفال بالسراغنة وزمران- كما بالقبائل المغربية- كان يذهب بهم منذ سن مبكرة، إلى المسجد، حيث إمامه الراتب، هو الذي يستألفهم بالجميء إليه، وهذا بتلين موقفه إزاءهم، خاصة في اللقاءات الأولى، بل وأحيانا بمنحهم بعض الهدايا البسيطة لطمأنتهم، ثم يعلمهم الجلوس إلى بعضهم، وهو من ذلك يهدف أن يرضي رغباته في أداء مهمته بجعل مادته تنفذ إلى باطن الطفل⁽²⁾، وهكذا ففي البداية يعطي متعلميه ألواحاً صغيرة - أتوا بها أصلاً من منازلهم- يكتب لهم عليها الحروف الهجائية الثمانية والعشرين بعد البسلمة والتعود؛ ويعمل على تعويدهم الواحد بعد الآخر النطق بها، وهذا بترديدها من الألف إلى الياء، والنظر إليها بالعين ولمسها بالأصبع (السبابة)، وبعد حفظها يقرؤهم إياها بالنقط ثم بالشكل (الضبط) أي معرفة المنقوط من الحروف من غيره ثم المنسوب والمرفوع... وقد تطول هذه المرحلة لما يوجد طالب غالباً متجافياً، مع صغار انتقلوا من أسرهم إلى وسط لا يألّفونه إلا بصعوبة في وقت يكون تعلقهم بدورهم وعائلاتهم كبيراً، ولنا أمثلة حية من عين القبيلتين المعنيتين، وذلك من علماء عاشوا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهكذا فقد ذكر محمد بن المعطي السريغيني الفطناسي⁽³⁾ المتوفى عام 1878م، إدخال والده إياه للمسجد للقراءة كما يلي: "أدخلني، رحمه الله، المكتب يوم الأربعاء وقت العصر بعد أن أخذ بيدي ومعني لوحتي إلى شيخنا بل شيخ القطر والعصر العالم الرباني الذي هو على قدم الغزالي⁽⁴⁾ أبي عيسى المهدي

(2) ربيع (مبارك) "عواطف الطفل" البيضاء 1991 ص 145.

(3) نسبة إلى فطناسة فخذة سرغينة شرق واد تساوت.

(4) يعني بذلك حجة الإسلام أبا حامد الغزالي.

الدكالي⁽⁵⁾ فابتدأ لي لوحتي وخط فيها حروف الهجاء خطوطاً ثم دعا لي بالبركة والفتح"⁽⁶⁾ أما محمد بن أحمد الغجدامي المتوفى عام 1955 م⁽⁷⁾ وهو الذي درس مدة بالسراغنة وزمران، فذكر دخوله الكتاب كما يلي: "لما بلغ سني من العمر أربعة أعوام أدخلت المسجد ودفعت للمؤدب..أتت بي أختي للافاطمة على ظهرها..فأعطاني..ملء يدي من الجوز مع لوحة كتب لي فيها: بسم الله الرحمن الرحيم والحروف الهجائية..فعرض علي قراءتها فلم أقبل وتغافل عني وأقبل على غيري من الصبيان فجلست معي الأخت عنده نحو ساعة ورجعت بي..على ظهرها.. وفي اليوم الخامس أحضر المدرر صبياً من أقراني.. ودفع له لوحة كتب فيها ما كتب في لوحتي وأعطانا الجوز الذي كان يؤلفنا به.. وفي اليوم السادس امتنعت من التوجه إلى الكتاب فحملتني الأخت المذكورة على ظهرها وأخذت بالبكاء والصراخ وقرص عنقها وصبرت حتى أسلمتني للمؤدب.." ⁽⁸⁾.

إن من أهم ما يمكن ملاحظته على هذا النوع من التعليم، هو اعتماده على الحفظ، والذاكرة عن طريق التكرار والترديد، وكانت البداية دائماً بالتعود والبسملة، وبعد حفظ الحروف الهجائية تكتب للصغار في ألواحهم، فاتحة الكتاب، بعدها سورة الناس فالفلق، وخلال ذلك يتم إتقان "النقط والنصب" وهذا مثال: الألف ما ينقط، الباء واحدة من تحت...وفي بسم الله يقولون في الحرمات: الباء بإخفاض السين اس الليزم أي عليها سكون.. وهكذا؛ وما يزال الطفل (الحضار) يحفظ السور القرآنية الواحدة تلو الأخرى من أسفل إلى أعلى، ثم من أعلى إلى أسفل، مع تقدم الأيام، حتى يتقن القرآن الكريم حفظاً وتجويداً ورسمًا.

(5) كان مدرسا في القرن 19 م بمدرسة المعطي بن الشيخ بفظناسة.

(6) ابن المعطي (محمد) حديقة الأزهار في ذكر معتمدي من الأخيار" مخطوط الخزانة العامة بالرباط ك- 1287.

(7) نسبة إلى قبيلة غجدامة البربرية الجبلية جنوب زمران.

(8) الغجدامي (محمد) التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات" نسخة خاصة ص 2-3.

لقد كان الطلبة يتحلقون حول الطالب المدرر، الذي يجلس عادة أمامهم، وذلك في صف أو صفين أو أكثر؛ حسب عددهم وسنهم، حيث غالبا ما يقرب الصغار أمامه، حتى يتمكن من ضبطهم ويضمن إلى مواظبتهم، والكل يأتي في الصباح الباكر، أي عند الفجر، يقرأون ألواحهم على ضوء نار تسخين ماء الوضوء لصلاة الصبح، ليقوم من حفظ لوحته، منذ طلوع الشمس بمحوها، في مكان وجد لذلك بالمسجد، ومن تأخر في الحفظ يؤنب، وتحي فقط البالية، أي الجهة المكتوبة قبل يوم، فتطلى بالصلصال الأبيض الذي يجفف غالبا بأشعة الشمس، أو على نار كانون المنزل أو المسجد، ثم كل صاحب لوحة يرجع بها إلى المدرس الذي بعد مراقبتها يبدأ بكتابتها، خاصة بالنسبة للمبتدئين، مستعينا في ذلك غالبا بالطلبة المتقدمين، خاصة في حالة كثرة الألواح⁽⁹⁾، ومن آنس منه بعض الكفاءة ولصقل مواهبه كان - أي الطالب - يقوم بالتحنيش له، أي رسم الكلمات بعقب القلم على لوحته، فيقوم "اخضار" بتتبع ذلك كتابة بالصمغ الأسود عن طريق قلم قصب الحر الذي يصنعه لوحده، وبهذا يتم إعدادده للتعود على كتابة لوحته؛ أما الطلبة الذين يستطيعون الكتابة فكان الطالب يملئ على كل واحد منهم قدرا، وعلى الآخر قدرا، كل حسب تقدمه وقدرة إمساكه؛ وهم يرددون بالتوالي، كلما كتبوا أن يزيد إلى كذا وكذا.. وهذا بعبارة تنم عن التقدير والاحترام، وهكذا يبقى الحال إلى أن تكتب كل الألواح، فيبدأ المدرر بتصحيحها متوالية، مؤاخذا كلا على أخطائه، وذلك حتى ينجزوا ذلك مستقبلا، ويستفيدوا في الرسم والمتشابه، وفي نفس الوقت كان يكتب للنجباء شعرا أو حكما، وأبياتا من مختصرات الكتب أسفل اللوحة مثل ابن عاشر في الفقه والألفية في النحو.. في وقت كان الطلبة الكبار يكتبون ألواحهم بأنفسهم مختلين في بعض زوايا

(9) يعني بذلك الألواح الخشبية للقراءة والكتابة وفيها الكبير والصغير.

المسجد، أو تحت شجرة قريبة ، وحيثما اتفق، وخلال المتشابهات فقد يلجأون إلى الأستاذ لفك ما أشكل عليهم، وقد يلجأون إلى المصحف الكريم، الذي كان عدة جلهم، يرافقهم مع اللوحة والدواة والقلم، في الحل والترحال طلبا للقرآن والعلم، وهو ما أشار إليه العجداامي المذكور آنفا، لما انتقل من بلده عجدامة - للدراسة بزمرا ثم منها إلى الزاوية الناصرية بتكلاوت على وادي تساوت ثم بالسراغنة، كما يلي: " ولما خف المرض أخذت عكازا أعتمد عليه في السير وخنشة كتان داخلها اللوحة والدوات والقلم وسرت متوكلا على الله قاصدا دار العامل السيد أحمد بن المؤذن السرخيني⁽¹⁰⁾ لأجل القراءة على ابنه.. سيدي علال.. وكان هذا العامل مشهورا بالجد والكرم وحب الطلبة ويحفظ قراءة السبع" (11).

لقد كان من طلبة السراغنة وزمرا والبادية المغربية، من تظهر بشارته في حفظ القرآن الكريم والعلم الشريف، مبكرا، وفي يفاعته، أو شبابه، ومن هؤلاء في القرن التاسع عشر الفقيه محمد المكي بن مريدة، ومحمد بن المعطي السرخيني؛ وفي القرن العشرين الزيد بن شاة، وأحمد بن المكي الفطناسي⁽¹²⁾؛ ثم الحاج سليمان بن الطالب محيي بتساوت وبزمرا وهما فطناسيان من دوار مبارك هناك بالسراغنة، وعلى النقيض من هذا فهناك من يمكث في ذلك حتى عشر سلك وسنوات طوال، فيسمى مطموسا، وكان هناك من الآباء والأمهات من هو ذو حرص قوي على تدريس ابنه وتفقيهه، عسى أن يضمّن له مستقبلا عيشا نقيّا، وأن يكسب سمعة اجتماعية لائقة، وهذا يكون مصدر شموخ للأسرة، وكان حسن نية هذه الأخيرة تظهر في عنايتها بالمدرس إطعاما وكسوة وهدايا، ثم تتبع مراحل

(10) أحد قواد السراغنة خلال القرن التاسع عشر.

(11) العجداامي، التسلي .. ص 32.

(12) كان صاحب مدرسة علمية شهيرة بالسراغنة توفي عام 1976.

تدرج "المحضر" الذي بتدرجه يتحول إلى طالب ثم فقيه فعالم وحتى علامة، وقد حكى ابن المعطي السرخي المذكور آنفاً، عناية أبيه كما يلي، "كان أبي، رحمه الله، لا يكل قراءتي إلى معلم الصبيان وحده، بل لا بد أن يباشر قراءتي بنفسه... حريصاً على قراءتي في كل أوان، ونعم كان ينهي المؤدب عن تعليمنا يوم الخميس وصبيحة الجمعة ويقول إنها سنة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب" (13) ثم أضاف قائلاً: "وكنت يوماً بين يديه أقرأ ألواحياً مع أخي العلامة المقرئ سيدي المدني بيستان لنا تحت شجرة من التين فأتى الوالد...، فجلس بإزائنا وبيده سبحة، فنظر إلى تلك الشجرة فإذا فيها غصن ناعم خرج منها وجاوزها علوها فقال المؤدب سبحان الله انظر إلى هذا الغصن - ثم التفت إلى والدي.. فقال لي كذلك تكون إن شاء الله أرجو أن تكون فوق رتبتي.. فقال المؤدب فرت بها يا فلان" (14).

ولقد كان بعض الآباء لجفائهم يلجأون إلى غير هذه الأساليب مع أبنائهم كتعنيفهم لتعويدهم على المواظبة والحفظ، ومعلوم أن العلامة ابن خلدون، قد خصص فصلاً في المقدمة لهذا، ووضعه تحت عنوان: "في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم" (15). لأنها مذهب بالهمم ومدعاة للكسل، ومع ذلك يتداول أن بعض الآباء أقرأوا أبنائهم بالقيد في الأرجل محبة في كتاب الله، كما كان بعض المعلمين في الغالب غلاظ الطباع، مع متعلميهم، يستعملون عصا طويلة تصل إلى أبعد الطلبة، وأخرى قصيرة خاصة بالأقرب إليهم، وهي للتأنيب والتنبيه، وقد تصل في كل وقت وحين، خاصة عند عدم رفع الصوت بالقراءة، أو التلاهي أو المشاجرة مع الأقران.. وكان التأديب الأقصى والأقصى هو "شبح المخالف" (16) وفي نفس

(13) ابن المعطي، "حقيقة الأزهار" ص 188.

(14) نفسه ص 131.

(15) ابن خلدون (عبد الرحمن) "المقدمة، بيروت ص 54.

(16) أي قبضه من أرجله وأيديه وتعنيفه من طرف المؤدب.

الآن كان المدررون يقومون مع طلبتهم، خاصة المجدين، آناء الليل وأطراف النهار قراءة وكتابة وترتيلا وتجويدا، منتقلين معهم من الآيات إلى الخرايب⁽¹⁷⁾، فالأثمان ثم الأرباع، وحتى الأنصاف عند الحذاق منهم، يتلون معهم ذلك أولا بسراية أي دون جبد⁽¹⁸⁾، ولا وقف، حريصين على جعلهم يستظهرون بضع أحزاب صباحا ومساء تسمى أسوارا"، ويتقدم الطالب بذلك نحو أعلى فأسفل، وهكذا إلى الحفظ النهائي الذي يسمى بالختم، وعند أحزاب معينة بالتخريجة لطفه والرحمن، ويحضر المحضر لذلك سبعة أيام يتعطل فيها عن الدراسة بعد أن يذهب به أقرانه إلى منزل أبيه في إطار ما يسمى "التجديقة" يأتي بعدها بهبة كساء وحتى بقرة للمدرر وتختتم بزردة طعامية للطلبة والجماعة.

يتم ختم القرآن الكريم حفظا وقراءة برواية ورش، لتبدأ باقي الرويات، وقد أصبحت للطلاب مبادئ في الفقه والنحو والعربية، يكتب له في ذلك الفقيه أسفل لوحته كل يوم نصوصا عبارة عن قواعد واستشهادات، وللحصول على مزيد علم واطلاع كان الطلبة يشدون الرحلة إلى قبائل مجاورة وحتى بعيدة، وإلى معلمين منعوتين بل كان منهم من يشارط كسبا لرزق معلوم، مع أن "الشرط" هو تعاقد مع الطالب المدرر من طرف أي دوار على أن يدرس ويؤم الصلوات في المسجد مقابل أجرة تؤدي سنويا غالبا وعلى البالغين من الذكور فقط، وقد يضطر إلى المشاركة في أعمال رعوية وفلاحية ليعين نفسه على الطلب، خاصة إذا كانت الرغبة هي ملء الوطاب علوما عقلية ونقلية، وحفظ المختصرات، والاطلاع على الأمهات، فوصلت رحلة السراغنة والزمرانيين بذلك، وفي الغالب حتى مراکش وجامعتها اليوسفية، وجوامعها العتيقة بل وحتى تمكروت والزواوية

(17) هي 1/16 من حزب القرآن الكريم

(18) هو تمطيط الحروف المتبوعة بأحد حروف العلة وهي واي.

الناصرية بدرعة، وفاس أيضا، ولنا في حالة الغجدامي المذكور آنفا مثال على ذلك، وهو الذي تنقل عبر مساجد السراغنة وزمران والبادية، وبعد أن ألف المسجد هناك قال "تماديت على القراءة فختمت السلكة الأولى فرجعت أكتب نصف الحزب كله من عندي"⁽¹⁹⁾ ولما صارت المؤدب وانتقل خلفه محمد بن علي الزمراني "لزم مسجدا في أولاد سعيد الشتاونة.. فأرسل علي وذهبت لديه فكنت أقرأ عليه قراءة ورش وكانت الوقت الذي توجهت لديه رمضان وكنا في معيشة منتخبة لديهم"⁽²⁰⁾ ، بعد ذلك سافر صاحبنا للطلب بالسراغنة ثم رجع إلى تملالت وهي قصبة مخزنية هناك، وفي ذلك قال: "وذهبنا لتملالت وفيها مدرسة قام بعمارها شرفاء تغالوت من أهل بزو يقرئ فيها أستاذ القراءات السبع، وجلسنا هناك في نعم وافرة سنتين، فاجتمع طلبة تملالت... فطافوا على سكاتها.. وقابلوا الطلبة بالاعتناء التام في الإكرام والزيادة"، بعد ذلك قصد هذا الطالب الأستاذ المدني بن الشيخ بطناسة هنالك، ثم درس بني عامر، وتوجه من جديد لزمران حيث قرأ بالسبع، وأنزلته بعض الأسر منزلة أبنائها إيواء وإكراما، ودرس في الكحاوشة على الأستاذ العربي السرغيني الحمداني، وهناك أيضا مررا مشارطا بثلاثين مثقالا وشيء من الزرع و ثلاث جمعات⁽²¹⁾ كل ذلك كان في نهاية القرن التاسع عشر، وقد ذكر أن هؤلاء حرثوا له في شرطه صاعين من الشعير، وبعد ذلك ذهب للطلب بني مسكين، ثم قصد مع مجموعة رفاق مدرسة العلامة أحمد الماجطني بتساوت قال: "وبتنا هناك فلم نجد محلا فيها لكون الطلبة الذين بها تعاقدوا أن لا يقبلوا زائدا عليهم لجماعة كانت تلك السنة وهي السنة الرابعة

(19) الغجدامي، سبق ذكره ص 40.

(20) نفسه، نفس الصفحة.

(21) يعني حصة سكن لكل أسرة.

والتسعين بعد المائتين وألف" (22) ، بعدها قصد زاوية تناغملت بالجبل، ثم فاس لكن لصعوبة الطريق رجع إلى زمران ثم لزاوية تـكـلاوت الناصرية شرقها، حيث خصص له بيت لسكنائه هناك، ونفدت له مع صديق له رَتِيَّان (23) وبعدها انتقل لاستكمال دراسته بمراكش على مجموعة أساتذة كمحمد بن إبراهيم السباعي ومحمد أزنييط، أما محمد بن المعطي السريغني الآنف الذكر، مما قاله عن طلبه ما يلي: "أخذت القرآن العظيم عن والدي.. وأما صحيح البخاري فأخذناه ما بين رواية وإجازة عن شيخنا سيدي أحمد المرينسي بحضرة فاس عام ستة وأربعمائة ومائتين وألف" (24)

• كيف كان الاساتذة والطلبة يرزقون بالسراغنة وزمران والبادية الغربية.

إن المدررين العاملين بالمساجد في قبيلة السراغنة، وزمران، والبادية، كان الدور الذي يتعاقد معهم على الشرط هو الذي يتكفل بأداء أجرهم سنويا في الغالب (وحتى شهريا أحيانا) وهذا ما كان العمل جاريا به في سائر أنحاء المغرب، وهكذا فبعد البحث عن الطالب اللائق تتم استضافته، والتعاقد معه على أجرة نقدية معلومة وعينية عبارة عن حبوب قمح وشعير تجمع صيفا، وإعطاء ضمان لذلك بالأداء في الوقت المحدد، وهكذا فالشرط (الأجرة) يجمع على البالغين سن الرشد من الذكور في الدور ويسمى أذنا! كما يمنح الميسورون للمدرر بعض الصوف عند جز الأغنام لصنع كسائه وغطاء أولاده إضافة إلى هبة تفاضلية من

(22) الفجدامي، سبق ذكره، ص 28.

(23) الرتيبة هي مؤونة أسرة لطالب تطوعا.

(24) ابن المعطي، سبق ذكره ، ص 250.

الزيت والسمن في إياها، وهي عطاءات طوعية يقل أو يكثر حجمها حسب خراج الشخص المانع، وتسمى "إمانا".

كما كان المدررون يستفيدون ماديا - وما زالوا- فيما يمنحه لهم الدارسون عليهم، من هدايا نقدية، كل يوم أربعاء قهينا وإيدانا بعطلة أسبوعية يوم الخميس وصباح الجمعة، وتسمى "لاربية" إضافة إلى واجب العواشر، أي تحريرة الدراسة في الأعياد الإسلامية، وهي استراحة لسبعة أيام، زيادة على هدايا طوعية مادية أو عينية كان يتبرع بها آباء الطلبة، خاصة من تظهر نجابته منهم، وعند الوصول إلى أحزاب معينة كطه والرحمن... والحمد لله رب العالمين الفوقاني، وتسمى تخريجة، يتحرر بعدها الطالب سبعة أيام في الكبرى وثلاثة في التخريجة الصغرى تزخرف لوحته من طرف الأستاذ فيذهب بها إلى أهله صحبة رفاقه، ولا يرجع إلا بعد أداء هدية جزاء على اجتهد الطالب في إقرائه.

وهناك طرق أخرى للكسب، خاصة عن طريق الخياطة، خياطة جلابيب "وسلاهيم" رجال الدوار وغيرهم، كما يقوم المدررون بكتابة التمام والحروز للتوقي من سموم العقارب يبعثونها لكل دار دار مطلع كل صيف، فتترجم بهدايا نقدية أو عينية أحيانا، وأيضا يعملون ذلك للتوقي من العين الشريرة، أو جلب خير ودرء شر أو للمودة.. وكان من الطلبة من تعامل في المواشي ومارس الفلاحة لجلب مزيد رزق أو كسب وفر مالي، إضافة إلى تلقي هدايا معينة من قدامى الدارسين عليهم، اعترافا بجميلهم، وقد تكون كساءات أو بقرة أو رأس غنم ! كما أنه إذا كان حضور الفقيه ضروريا في المسجد، فهو لتعميره أولا. ثم لإقامة الصلوات والإفتاء في النوازل؛ فهو ظل موضع عناية الجميع إقامة ومؤونة، تحل ضوائقه المادية غالبا طوعا من طرف المحسنين من السكان والمتبرعين والمهتمين ببيوت الله وتعميرها والعناية بطلبتها.

أما الطلبة الأفاقيون، وما أكثرهم بالسراغنة وزمران والبادية، فكانوا يكفلون في تغذيتهم من طرف عموم الناس، خاصة الموسرين، وهو ما يسمى "رتبية" أو نوبة مؤونة، حيث تشتمل الفطور والغداء والعشاء من أسر معلومة لكل واحد منهم؛ كما يحصلون على بعض المال من حضور الولائم والأعراس والقراءة فيها، ومنهم من يذهب للحصاد مع الناس وإعانتهم في بعض الأشغال مقابل رزق معلوم، وكان طلبة كل فريق سرغيني أو زمراي غالبا ما يقومون صيف كل سنة بما يسمى بالدور حيث يطوفون بالدواوير، فيكونون موضع إكرام الجميع مؤونة وهدايا لما في أذهان الناس من أفضل العلماء كبير عليهم، بل وكان طلبة العلم من أهل جامعة ابن يوسف بمراكش ومدارس هذه الأخيرة، ينظمون ربيع كل سنة ما كان يسمى حتى عهد قريب بترهة الطلبة أو سلطان الطلبة، ولا تكون هذه الأخيرة إلا بإذن من السلطان، وهكذا ففي رسالة من مقدمهم التايك بن محمد العمراني بتاريخ 2 جمادى الثانية عام 1301 هـ إلى السلطان المولى الحسن الأول، وجدناه يطلب للطلبة الترخيص بهذه الترهة، وذلك كما يلي:

"...فينهي لكرم علم مولانا.. أن طلبة العلم.. أهل المدارس المراكشية.. اجتمع رأيهم كما لا يخفاكم ما عليه الطلبة من الفاقة والفقر.. [على].. الترهة التريهة.. في هذا الربيع.. ونحن أولى بالفرح والسرور" (25) وكان الطلبة يطلبون تنفيذه مالية للسلطان للقيام بتلك الترهة، كما أنها تكون مناسبة لإشفاء غليل النفس في المأكولات والمشروبات، وهو ما يظهر من رسالة بالترخيص وطلبه للسلطان المولى عبد العزيز وهي من تاريخ 20 قعدة عام 1318 هـ مضمنة بمحفظه الوثائق قم 534 بالخزانة الحسنية بالرباط، ومنها: " (أدام الله العز والتمكين لسيدنا.. يعلم سيدنا.. أنه.. أقبل الشهر المبارك مارس وانبسطة

(25) رسالة محفظة الخزانة الحسنية بالرباط رقم 30.

الوجوه.. وتفتحت أنواع الربيع.. وضحكت الأرض.. فتزخرفت.. وغنت أطياف غصونها.. ولأجل ما ذكر..دعتنا النفوس.. للزهوة.. توصلا للافتراس في لحوم الحيوانات من غنم وبقر وجمال ودجاج.. مسوغين ذلك بكؤوس الأتاي المزوج بالنعناع مؤملين صالح الأدعية لمولانا.. مضطربين بالفرح و الاشتياق.. فنطلب من سيدنا أن يمدنا بشريف عادته وينعم عليها بالزهوة المقررة من أسلافه الكرام.. وعلى الطاعة والسلام " طلبة العلم الشريف بالمدارس المراكشية وفقهم الله".

وإذا كانت نزهة الطلبة الربيعية تسفر عن مداخيل تعيينهم على الدراسة، وهي من أهل البادية التي يتطوفون بها، فقد تنازعوا على قسمتها أحيانا، إما على الرؤوس، أو بين طلبة أهل المدينة وطلبة البربر وطلبة العرب، وقد ترافعوا في ذلك إلى السلطان، كما توضحه رسالة عزيزية إليهم بتاريخ متم شوال عام 1314 هـ..، وقضى فيها رأي السلطان بالتوزيع مثالثة كما ذكر، وهي عادة مألوفة وقديمة حسب الجواب السلطاني (رسالة كناش الخزانة الحسنية رقم 429 ص 110).

• نماذج لمدارس وكتب ومكتبات بالبادية السورية

والزمانية.

لقد اهتبل شباب السراغنة وزمران، ومازالوا، في المواظبة على حفظ كتاب الله العزيز وترتيله، وحرصوا شغوفين على التفقه في معرفة أحكامه ورسمه وتجويده، ثم معرفة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحاديثه لتطبيقها في حياتهم عبادة ومعاملة، وكان منهم من الشيوخ والكهول هناك من يرتل الآي الكريم في العمل والطريق للاستئناس والعبرة، بل من هؤلاء من حفظه وراء الغنم، وحتى بعد أن صار له المال والبنون. ومنهم من حفظه بالسمع دون إتقان الخط والكتابة، وكانت قراءته في المساجد تتم صباحا ومساء (حزب العشاء وحزب الصبح) ثم نهارا، جمعا وفردا، وهذا من غير المشتغلين بالتدريس، بل كان من القراء الراعي

والكساب والفلاح والتاجر، كما شغل الناس بحفظ الأمهات والمختصرات كآلفية ابن مالك والمرشد المعين لابن عاشر.. ولم تكن دار -غالباً- تخلو من كتاب، بل ومن المصحف الكريم الذي نسخه الناس يدويا وبالتأجير لأولادهم وبركة لأسرهم، أما دور الطلبة فضمت كتباً حتى في الفلاحة وعلم الحيوان والنبات والحساب، كما أسس الناس المدارس العلمية، وتسابق في ذلك الفقهاء والميسورون، وحتى عموم الناس بالعمل ومؤونة الطلبة، فأشاعت العلم ونورت العقول، وولجها الطلبة بلديون وأفريقيون، وكان من أشهرها بالسراغنة وزمران حتى عهد قريب وبعضها يشغل إلى اليوم:

- مدرسة تملالت: قام بعمارها شرفاء تغبالوت، وكانت بها قراءة السبع.

- مدرسة سيدي المعطي بن الشيخ بفطناسة: ملحقة بزاوية العمرانيين هناك وقد أحبت العلم بتساوت، وقد توفي مؤسسها محمد بن المعطي عام 1878م.

- مدارس بني عامر، منها مدرستان في الدشرة هنالك، أولهما كانت للفقيه العربي الفكرون والثانية للطالب محمد بن حمو.

- مسجد أولاد مبارك بفطناسة: مشهور وعتيق، ولجّه طلبة كثيرون وعلماء فطاحل منهم الفقيه محمد بن الحمري ومحمد بن المعطي وعبد الرحمن بن الحاج سليمان، حتى مطلع القرن العشرين ونهايته، الأولان استقرا بمراكش مدرسين وإمامين بمساجدها إلى أن توفي بها في حدود عام 1957 و 1996 تباعاً، أما الثالث فاستقر بفطناسة طالباً وتاجراً إلى أن توفي هناك في حدود عام 1940.

- مدرسة القائد أحمد بن المؤذن بالحمادنة : ملحمة بدار هذا القائد الذي كان ذا صحة للعلم وأهله في القرن التاسع عشر.

- مدرسة الفقيه محمد العربي بن البهلول بالقلعة: درس فيها بنفسه في النصف الثاني من القرن العشرين وإلى وفاته عام 1986م وما زال يعمرها ابنه محمد، وهو من سلالة أولاد سيدي رحال.

مدرسة الفقيه أحمد بن المكي بفظناسة: هي بدوار القصور هناك/ إلى جانب مسجد هذا الدوار واشتعلت إلى حدود عام 1970م، وما زالت قائمة البناء والرسم.

- مدرسة الصهريج: ملحقة بقبة ضريح الولي سيدي محمد من سلالة الرحالين، مازالت قائمة الذات تدريساً وعبادة إلى اليوم.

- مدرسة سيدي أحمد بن عبد العزيز بالعطاوية غرب واد تساوت وكانت شرقه هناك مدرسة أخيه سيدي عمر، وكلاهما من القرن الثامن عشر الميلادي.

- أما بزمران فكانت المدارس أيضا وافرة، بل مسجد كل دوار هو مدرسة متكاملة، ونستطيع الإشارة إلى ما يلي منها:

مدرسة أولاد ناصر: أسسها وأشرف عليها القائد عمر المصوبر الزمراني المتوفى عام 1943 وكان من فقهاء المدرسين الفقيه اليزيد بن شانه.

- مدرسة أولاد عامر: كان فيها الفقيه اليزيد بن حمو وقبله الفقيه حمو السرعيني حتى مطلع القرن العشرين.

- مدرسة الزاوية الرحالية: وجدت منذ القرن السادس عشر الميلادي، وهي بجوار قبة الوالي سيدي رحال البدالي مؤسسها.

- مدرسة القائد الهاشمي الزمراني: وجدت في القرن التاسع عشر، بجوار دار هذا القائد بمدينة سيدي رحال.

- مدرسة مسجد أولاد حجاج: قرب تملالت درس بها الفقيه محمد بن الطالب من أولاد مبارك بفطناسة، في مطلع القرن 19 مومن سلالته أيت الحاج سليمان هناك.

- ولا تفوتنا الإشارة إلى أن مساجد الدواوير لم تكن تقل أهمية في تحفيظ القرآن الكريم وتلقين مبادئ العلوم عقلية ونقلية، ثم استقبال الوافدين من الطلبة وتسهيل مقامهم، وهي تعد بالعشرات بين السراغنة وزمران، كما بالقبائل المغربية.

أما عن الكتب والمكتبات فقد كان تلهف الكل لها واضح، سيما الطلبة والفقهاء، والعلماء يجمعونها خلال فترات التنقل والطلب، ويعتزون بالرجوع إليها ومطالعتها، فكانت عديم في حلهم وترحالهم؛ حتى إذا ما استقروا في مهام كالتدريس وغيره، اغتنوا بها واعتدوا بتملكها وتداولوها مع الأقران بغية الاستفادة والتبادل الثقافي والعلمي، كما كانوا يرجعون إليها كلما دعت الضرورة، سواء للإفتاء أو الاطلاع وتجديد العلم والمعرفة، فارتبطوا بها لذلك ارتباطهم بذكرياتهم، وهكذا فإن طلبة ابن يوسف كما طلبة السراغنة وزمران، كانوا يحتزنون تلك الكتب في رفوف مكتباتهم أو في صناديق، متعهدين إياها بالصيانة والحفظ، معتزين بميازمتها كأحسن ما يكون الاعتزاز، متفاخرين بما حوته مكتباتهم من نفائس ومخطوطات.

وهكذا فإذا كنا نرجح أن دارا لم تكن تخلوا من كتاب حتى عند العامة وفي غالب الأحوال، فإن العلماء والمثقفين، كانت مكتباتهم زاخرة، وإن كانت غالبا ما تتبثر بعد وفاتهم ولنا أمثلة من القبيلتين المعنيتين بمكتبات القائد عمر المصوبر

الزمزمراني(1894-1949)، وهي بمراكش وزمران، ومكتبة الفقيه أحمد بن المكي الفطناسي المتوفى عام 1976، ومكتبة القائد أحمد العبوي السرخيني الذي تم إحصاء مكتبته ضمن تركته بعد وفاته عام 1859م، وكذلك مكتبة الفقيه محمد العربي بن البهلول بقلعة السراغنة بحي الزاوية منه، والمتوفى عام 1986م، وللاختصار نورد هنا بعض إحصاء مكتبة القائد العبوي المذكور، كما وردت في كناش الخزانة الحسينية بالرباط رقم 37 وهو كما يلي: "الحمد لله بيان الكتب بدار الحاج العبوي السرخيني عام 1276. أوله أسفار من نسخة البخاري، ثم النصف الأول من القاموس، ثم سفران من الكلاعي، ثم حياة الحيوان، ثم كتاب الرصاع في الصلاة على النبي... ثم الجمان في أخبار الزمان، ثم القرطاس في أخبار فاس، ثم الجزء الأول من الشيخ القسطلاني.. ثم الروض الفاتح في مناقب أبي محمد صالح، ثم خمسة أسفار من نسخة البخاري.. ثم سيدي عبد الرحمن الفاسي على دلائل الخيرات في سفر صغير، ثم سيدي المهدي الفاسي على دلائل الخيرات، ثم الشيخ اليوسي على الهمزية، ثم كتاب زهر البستان في الفلاحة، ثم شرح الشمائل لابن حجر، ثم المكودي على الألفية، ثم كتاب جريدة العجائب، ثم الشيخ التاودي عن ابن عاصم، ثم خمسة أحزاب من القرآن العظيم... ثم نسخة ابن مالك ثم نسخة ابن عاشر ثم اعراب الشيخ سيدي عبد المعطي على الجرومية في أوراق.. ثم ابن سلمون، ثم سفر صغير في الأدب سمي بالسر العاشق، ثم الربع الأول من كتاب الحفيظ سيدي عبد العظيم ثم سفر شرح شواهد ابن هشام، ثم القسم الثالث من يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ثم سفر بخط المشاركة في أحكام الوضوء والطهارة، ثم أحزاب من القرآن.. ثم نسخة الشيخ خليل، ثم سفر فيه شيء من أحكام القرآن وفيه أيضا أوراق من ألفية ابن مالك، ثم مصحف كريم مبثور أوله وآخره، ثم سفر لامية الزقاق.. ثم مقامات الحريري ثم سفر كبير في علم التوحيد انتهى..

وإذا كان هذا قليل عن مكتبات الأعيان، كما هو الحال عن خريجي وطلبة الجامعة اليوسفية العتيدة بمراكش، فلا يسعنا إلا التنويه بما قام به المتخرجون منها، والمدرسون بها من تأليف عنها أولاً، كما فعل الأستاذ محمد بن عثمان المتوفى عام 1945م حين مجدها بكتابه "الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة، وكما فعل العالم محمد بن المعطي السريغيني الفطناسي نزيل مراكش وعالمها والمتوفى عام 1978، وذلك في كتابه "حديقة الأزهار في ذكر معتمدي من الأخيار" مخطوطة الخزانة العامة بالرباط كـ 1287؛ حيث لو استعرضنا هذا الكتاب لوجدناه زاخراً بالمعلومات، وموسوعة حقيقية، جعله صاحبه في مقدمة ومقصد وخاتمة، حيث جعل المقدمة في فضل العلم وأهله، والمقصد في معتمده من الشيوخ والعلماء مراكشيون وغيرهم، والخاتمة في أدبيات ومحاضرات مختلفة، وذكر في هذا الكتاب أصله ونسبه الشريف، ونزول أهله بتساوت من أيت باعمران بالصحرء، ثم مدح تساوت بقصيدة شعرية حيننا إليها وهو بمراكش، ذاكرنا دخوله للكتاب وأخذه به عن والده، ثم فضل الشيوخ ومحبة الأولياء والعلماء، ثم دراسته بفاس، كما مدح صحيح مسلم لما ختمه بمراكش، بقصيدة شعرية، وكذا ختم البخاري، ورثى شيخه بفطناسة المهدي العوي الدكالي، المتوفى عام 1853م، ثم ضمن تأليفه أمثالا وحكما، وقبلها قصيدة شعرية في التوسل بصلحاء مراكش، والثانية في مدح علماء هذه الحضرة، لما اجتمعوا للزفة بإحدى رياضاتها، ومطلعها:

فهل لكم يا أنس لقلبي وخاطري في روض لجمع الشمل أبهج عاطري.

فلله ما يلقي الفؤاد من النوى وشوقي إليكم كالغيوث المواطري⁽²⁶⁾.

(26) ابن المعطي، سبق ذكره، ص 389.

تلك كانت ارتسامات عن جامعة ابن يوسف دائرة العلم والثقافة بالجنوب
المغربي بل وبالمغرب كله وعلاقة باديتها بها وإشعاعها عليها عبر الأزمان والدهور،
نتمنى أن تتجند الأقلام لتلميع دورها وإظهار رجالاتها وفتاحلها، وأن يشيب
الله عز وجل كل من يعمل على إحيائها وإبرازها للوجود.

